ذاكرة المقامات

حتى لا تسرقنا مخططات تهويد الهوية

المصدر : (محمد الأسعد)

تاريخ النشر: 10/06/2013

مثلما أن هناك مسافات صوتية يحسبها بدقة واضعُ اللحن والمغنّي معاً، هناك مسافاتٌ أرضية يحسبها صاحبُ الأرض بدقة أيضاً . ومثلما تتحول الأصواتُ إلى ضجيج وطنينٍ بلا معنى حين تختلّ المسافاتُ الصوتية وتفتقر إلى الدقة، يتحول الوطنُ إلى مجردِ أمكنة بلهاء حين تختلُّ مسافاته في مخيلةِ صاحب الأرض، فلا يميّز بين بيتِ طفولته وبين منتجع صيفي في ماربيا .

حين نغني إذاً، لا نصدر أصواتاً كما تصدرها آلة طبل ومزمار وعود، بل نتلمس جغرافية وطن بأسمائه وأماكنه، ونتلمس روحاً هاجعة في الذاكرة تظللها ترانيم الأمهات، ونغمات لغتنا، وطرقات ومواسم بساتيننا وشواطئنا، ويخطئ من يظن أن الموسيقا مجرد مسافات صوتية معلقة في الهواء، مثلما يخطئ من يظن الوطن مسافات تقاس بالأمتار والكيلومترات، ويخطئ أيضاً من يعزل مسافات الصوت عن مسافات الوطن، سواء كان الصوتُ رواية أو قصيدة أو نشيداً أو أغنية .

المقامات موجودة في تكوين كل إنسان، ولأنها مجموعة نغمات متوافقة أو غير متوافقة، تكمن فيها الوحدة الروحية والنفسية لأي شعب، والذاكرة أيضاً، ولكل نغمة منها دلالة تعبيرية في متناول من يؤديها، ولهذا لا أستغرب حين أسمع كاتباً صهيونياً يقول عن الشاعر الشعبي الفلسطيني موسى حافظ إنه دمّر العديد من مخططات تهويد العرب في إسرائيل من خلال الشعر والشبابة والمجوز والأرغول والربابة .

ولا أستغرب بالطبع حين تقول رحيلا مزراحي: إن الحركة الصهيونية، وبعد ذلك دولة إسرائيل، قامت بجهود كبيرة لربط ثقافة مهاجريها الأوروبيين بالتراث المحلي، الذي هو جزء لا يتجزأ من تراث المنطقة العربية، في إطار إدعاء عودة شعب أصلي إلى وطنه بعد ألفي عام، فقامت بسرقة عناصر مختلفة من التراث الفلسطيني وتوزيعها في العالم كتراث يهودي قديم .

كلا الأمرين يلازم أحدهما الآخر؛ حيث مخطط تهويد العربي الفلسطيني، ومخطط انتحال أزيائه وأغانيه ورقصاته، بل وحتى لهجته . التهويدُ محوٌ للذاكرة، والانتحالُ خلقُ أشباهٍ تتحول بالتقادم وضياع الذاكرة إلى أصول، والنتيجة هي تحويل حكاية النكبة إلى حكاية يحكيها معتوه، بشك أي مستمع في واقعية أحداثها وأشخاصها .

* * *

نحن لسنا معتوهين؛ هذا ما يود قوله شعراء العتابا والميجنا الفلسطينية، أي شعراء مقامات البيات والحجاز والصبا، شعراء بحر الوافر والرجز والهزج والرمل . شعراء نكبةٍ حقيقية تمزقتْ فيها أواصرُ الجغرافية والمجتمع، فحق لها أن تجتمع في اتصالٍ سمعي مختلف عن الاتصال البصري البحت واللغوي الصافي . هذا الاتصال السمعي يستمد معناه ودلالاته من علم نفسٍ وعلم أناسة وعلم جمال ولغويات، وكان هذا التجمع ضرورياً، كما هي ضرورة أن يتواصل أهل قرية معلولا السورية، أو المعلاة في النطق العربي الفصيح، مع أنفسهم طيلة أكثر من الفي عام بالعتابا والميجنا، وبالمقامات نفسها، واللهجة العربية المميزة؛ الإرمية القديمة .

وأنا أستمعُ إلى الشاعر الشعبي الفلسطيني إبراهيم محمد صالح، الشهير بلقب أبو عرب، كنتُ استمع إلى أصواتِ الجغرافيا الفلسطينية وأيامها وأهلها، ما يحاول عدونا سلبنا إياه؛ الفن والتراث والتراب والأزياء والزيتون . والأكثر أهمية إنني كنتُ أرى فيه شعر المشاركة الجماعية حين يقف الجمع وراء قائد اسمه الشاعر . لم يكن السبب أن الشاعر يعيد إحياء التراث في عقول وقلوب الفلسطينيين، ويردد أسماء قرانا وسهولها وجبالها وأنهارها وشواطئها وشهدائها وهو يغني فقط، بل لأن المسافات الصوتية في أغانيه هي حاجة ماسة حتى لا يسرقنا شيء من أنفسنا . إنها تذكّرنا وتغمرنا وتحمينا .

ويعيدني هذا إلى حكايات وترانيم أمهاتنا حين كانت تحمينا من الغيلان الخرافية، ومن الضياع في متاهات جبلية أو غابات تتخيلها أمهاتنا، ونتخيل معهن طرق الخلاص والعودة إلى البيت .

* * *

مخيلتنا إذاً، بحاجة ماسة إلى أن تتحرر، كما أرواحنا وعقولنا، ففي سياق النكبات وما بعدها، وعلى مسار دروبها الطويلة (أكثر من ستين عاماً)، تنهار قيمٌ وأخلاقٌ وروابط عزيزة، وتتعرض المخيلة لاستعمارٍ من شتى الأشكال؛ من صور ومفاهيم وعادات، تختلف كما يقول ابن القدس الفنان ستيف سابيلا عن الاستعمار المادي؛ استعمار القرية والمدينة والمشهد، إنها أشكال قوة استعمارية جديدة تغزو ذاتي وذات الآخر العربي والغربي أيضاً . هي لا تسعى، كما يضيف سابيلا إلى احتلال المكان والناس، بل تستهدف غزو مخيلتهم، وإقامة نظام جديد على نطاق أوسع من النطاق المحلي، غزو المخيلة واستعمارها يُخضع الناس إلى شلل عقلي وجسدي يقيد النمو ويمحو أي فكرة عن الحرية .

ويبلغ هذا الاستعمار مبلغاً في شدته أن الإنسان معه يحتاج إلى أن يقتلع نفسه من نفسه كي يتغلب على هكذا مخيلة، يحدث هذا في فنون الاتصال البصري وفنون اللغة، حين يعيد الرسام والكاتب اكتشاف محيطهما، واكتشاف الأماكن الداخلية في النفس التي أحاطها استعمار المخيلة بالحواجز وجعلها مناطق محرمة، أو طمرها ومحا طرق الوصول إليها .

الاتصال السمعي يؤدي هذه الوظائف ذاتها، ولكن عن طريق أكثر رهافة؛ إنه يحررنا حتى من الأشكال المادية للتواصل، ويرتفع بفن الصوت إلى مستويات تستنهض أعمق الذكريات، وتحفظ لنا ذاكرتنا كما لم يحفظها أي وسيط آخر . فقد ينسى الإنسان سطوراً شعرية، وملامح بصرية تضمحل مع مرور الأيام، إلا أن مجرد تذكر إيقاع هذه السطور يعيدها إلى الحياة، ومجرد تذكر مقامات صوتية رافقت مشهداً أو صوراً من حياتنا الماضية، يبعث هذه الأخيرة فوراً من سباتها العميق .

* * *

في تجربة فريدة من نوعها، اكتشف الباحث الأمريكي آلبرت لورد 1912-،1991 أن منشدي الحكايات في البلقان الذين يرفقون إنشادهم بالعزف على آلة تدعى جوزل شبيهة بالربابة البدوية، لا يتذكرون موضوعات وبنية حكاياتهم وفصولها بوساطة صيغ لغوية شفهية متوارثة فقط، بل وبوساطة نغمات آلتهم الموسيقية التي ترافق إنشادهم، فحين أخذ ربابة أحد المنشدين من بين يديه لم يستطع هذا مواصلة الإنشاد، ولم تسعفه ذاكرته .

النغمة هي التي تستحضر الصورة والكلمة وليس العكس، وهي التي تستحضر التسلسل الزمني، سواء كان تسلسل حكاية أو مشاهد، أو هي التي توقظ الذاكرة، وحين يقول الشاعر أبو عرب في عتابا له نحن انتسينا وما نسينا بلادنا، يواصل بذلك تقاليد الشاعر الشعبي حين تحضر مع مقاماته أو مسافاته الصوتية صورٌ وأسماءٌ وحكاياتُ الوطن الفلسطيني .

هل يسكن الوطنُ في الصوت وحده؟ لا . . بالطبع، ولكن هذه المسافات الصوتية المتوارثة، العتابا والميجنا والسويحلي والنايل . . إلخ هي الأكثر استعصاءً على الزوال والتلاشي .

الصورُ تبلى والكلماتُ تنسى، ولكن النغم وحده هو من يعيد لنا كل ما يبلى وينسى .

لهذا السبب شهدتُ الكثير من الفلسطينيين ينصرفون عن سماع منشدين ومغنين وشعراء ورواة فلسطينيين لا يسمعون في إيقاعاتهم تلك المسافات الصوتية التي تبعث صور وأحاديث فلسطين في أذهانهم، وتسنى لي سماع تفسير طريف من أحدهم حين أرجع سبب انصراف جمع فلسطيني عن مغنية منذ وقت قريب، إلى أن الجمع لا يجيد تذوق الفن الراقي .

وكان تفسيري أكثر إنسانية؛ انصرف الجمعُ عن السماع لأن لديه مسافات صوتية، أو مقامات، هاجعة في ذاكرته، لديه حاجة إلى ألا ينسى، ألا تستعمر مخيلته السمعية والبصرية نغماتٌ ذات مسافات لا تتوافق مع مسافات الأرض التي يعرفها جيداً .

من لا يخاطب ذاكرة الإنسان السمعية لا يستطيع الوصول إليه .